محاضرة 09 : الصدق والكذب

- شغلت هذه القضية معظم النقاد القدامى ، وتشعبت آراؤهم لتنوع مشاربهم ، وظهرت ثلاثة مذاهب فمنهم القائلون بوجوب التزام الشاعر جانب الحق فيما يقول ، وهؤلاء مع مقولة [أحسن الشعر أصدقه] ، وهنا يتضح أن المقياس الأول للحكم في الشاعر بالجودة هو الصدق . أما الفريق الثاني فهو فريق الوسط الذي يستحيل التزيّد من دون أن يخرج الشاعر إلى الإحالة وعندهم : [أحسن الشعر أقصده] ،أما الفريق الثالث فمع مقولة:أعذب الشعر أكذبه.
- وهكذا فمصطلح الصدق والكذب مظلّل يحوطه الغموض ويكتنفه ضباب كثيف ، حيث تمازج به في الشعر ـ المفهوم الديني أو العقلي المحض ، وأصبح النقد الحديث يردد مصطلحات الخيال أو التجربة أو الصدق بمعناها الفني ، ويغلب على مصطلحات النقد العربي مرادف كلمة **الإفراط** بكلمة **الإغراق** وبكلمة **الإحالة** ، **وجميعها** تقيس الأمر قياسا عقليا ولا تنظر إلى الشعر بوصفه كيانا فنيّا خاصا له لغته الخاصة التي قد تفرض قبولها وجدانيا متجاوزة حدّ القبول العقلي .

- **رأي النقاد القدامى في الصدق والكذب :**

- **ابن قتيبة :**

ابن قتيبة من الذين يلحّون على صفة الصدق في الشعر ، فقد عدّ مجاوزة الشاعر وجه الحق عيبا ينال من شعره والدليل على ذلك حديثه عن النمر بن تولب يقول : " ومما يعاب عليه قوله في وصف سيف:

تظلّ تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

- ذكر أنه قطع ذلك كله ، ثم رسب في الأرض حتى احتاج إلى أن يحفر عنه ؛ وهذا من الإفراط والكذب ، وواضح أن ابن قتيبة ينشد صدق المطابقة للواقع الخارجي بعيدا عن محيط نفس الشاعر وعاطفته ، فالنمر تزيّد في وصف السيف حتى خرج إلى المحال .

- **ابن طباطبا العلوي :**

- يعدّ على رأس النقاد المؤثرين الصدق وقد تكلم على أنواع عدة من الصدق منها :

1. **الصدق العقلي :** لما كان الفهم منبع الشعر ومصبّه عند ابن طباطبا ، فالصدق يصبح أهم عناصر الشعر وأكبر مزاياه، لأن الصدق صنو الاعتدال الجمالي يقول : [والفهم يأنس من الكلام بالعدل والصواب والحق ... ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل] ، فالجمال والحق (الصدق) مترادفان عنده في الدلالة .
2. **الصدق الأخلاقي :** لا مجال فيه للكذب بنسبة الكرم إلى البخيل أو نسبة الجبن إلى الشجاع أو نسبة الحماقة للحليم ، وإنما هو نقل للحقيقة الأخلاقية كما هي وهذا يتبين في المدح والهجاء (رأي عمر بن الخطاب في زهير)

3. **الصدق التاريخي :** وهذا يتمثل عند اقتصاص خبر أو حكاية كلام ، وهنا يسمح ابن طباطبا للشاعر أن يزيد أو ينقص دون أن يخدج صدقية الحادثة التاريخية .
4. **الصدق في التشبيه :** الصدق التصويري ، وأحسن التشبيهات عنده ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبها به صورة ومعنى .
5. **الصدق النفسي :** يكشف الصدق هنا عن المعاني المختلجة في ذات النفس والتصريح بما يكتم منها والاعتراف بالحق في جميعها وهذا النوع من الصدق ما يسمى بالصدق الفني .

- **ابن رشيق القيرواني :**

- يرى أن الشعر الخالد ما وافق الواقع ، وليس في العرب قبيلة إلا وقد نيل منها وهُجيت وعيرت، فحطّ الشعر بعضا منهم بموافقته الحقيقة ومضى صفحا عن الآخرين بما لم يوافق الحقيقة .
- ومع تقدير النقاد للصدق نرى معظمهم لا يجعل الصدق باعتباره مطابقة للواقع مقياسا في تقليل الشعر ، ففي المديح والهجاء والفخر لا يلزمون الشاعر بأن يقف عند الواقع ولا يتعداه ، بل يبيحون له أن يكذب ، وأن يأتي من الأحكام بما لا يتفق مع الحقيقة ولا يعنيهم إلا صواب المعنى .

- **قدامة بن جعفر :**

- من أبرز الداعين إلى هذا المذهب (الغلو) في فن الشعر ، وهو يعتمد على ثقافة عربية وأجنبية غزيرة ويقول: " إن الغلو عندي أجود المذهبين " ثم يواصل ، وقد بلغني عن بعضهم قوله : أحسن الشعر أكذبه ، وكذلك يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم،وكأن الأمر عند قدامة أن لكل معنى من المعاني التي يعرض لها الشاعر مبدأ ووسط وغاية، وأن على الشاعر كي يحدث التأثير المنشود لدى متلقيه أن يصور الغاية التي لهذا المعنى وإن كان ذلك على حساب حقيقة الشيء أو المعنى وصورته في نفسه، ويعود إلى البيت الذي علّق عليه ابن قتيبة وهو قول النمر بن تولب :

تظلّ تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

- فليس خارجا عن طباع السيف أن يقطع الذراعين والساقين والهادي وأن يؤثر بعد ذلك ويغوص في الأرض ولكنه مما لا يكاد أن يكون .
- أما الممتنع الذي لا يجوز من أنواع الغلو ، فهو كما في قول أبي نواس :

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن

- فهذا من الغلو المستقبح ، إذ ليس في طباع الإنسان أن يعيش أبدا .

- **ابن الأثير :**

- أما الإفراط فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة ، وحمده آخرون والمذهب عندي استعماله ، فإن أحسن الشعر أكذبه بل أصدقه أكذبه لكن تتفاوت درجاته ، فمنه المستحسن الذي عليه مدار الاستعمال ومن ذلك قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق